



عن تاريخ موسم الحج في مصر

رضوان الجنانى

فى البداية وطوال القرنين الأول والثانى الهجريين (السابع والثامن الميلاديين) على الأقل كان أبناء القبائل العربية الذين استقروا فى مصر واستوطنوها يخرجون فى موسم الحج متجهين إلى بلاد الحجاز بالشكل القبلى الذى جاعوا به فى جيش الفتح، فقد كانت كل قبيلة تشكل وحدة منفردة، وكذا عندما استقرت هذه القبائل فى الفسطاط فقد استقلت كل قبيلة بخطتها - حارتها - أى أن أبناء كل قبيلة إذا عزموا على الحج كانوا يتجمعون فى قافلة خاصة بهم ولكن هذا لا يمنع أن يتجمع أبناء عدة قبائل معاً تقوية لجمعهم وتحقيقاً لأمنهم ضد قطاع الطرق وأخطار السفر.

وكان خروج أبناء القبائل فى موسم الحج يتم بموافقة والى مصر ورضاه لأن هؤلاء الأبناء هم جند فى جيش الفتح وعليه تقع مسئولية حماية الولاية والدفاع عنها.

وفى أحداث الفتنة - الثورة ضد الخليفة عثمان - انتهز أبناء القبائل المعارضين للخليفة عثمان فرصة موسم الحج للخروج من مصر والتوجه إلى المدينة المنورة، والسيوطى يذكر أن البشير - الذى كان يعود سابقاً للحجاج ومبشراً بسلامة عودتهم - عاد وأخبر بأن الذين خرجوا من مصر قد اتجهوا إلى المدينة المنورة للمشاركة فى محاصرة الخليفة عثمان ذلك الحصار الذى انتهى بمقتله.

عبر شبه جزيرة سيناء وعبر البحر الأحمر كانت الروابط والصلات قائمة بين مصر وشبه الجزيرة العربية عامة، وبلاد الحجاز خاصة، طوال عصور التاريخ.

لقد لعب الواقع الجغرافى الدور الرئيسى فى تلك الروابط؛ فمصر وبلاد الحجاز تتقابلان على شاطئ البحر الأحمر الذى يمتد بينهما بإسقاطاً ذراعيه - خليج العقبة وخليج السويس - أحدهما نحو شبه الجزيرة العربية والآخر نحو مصر معلناً هذه الروابط ومؤكداً لها إلى الأبد.

وبعد الفتح الإسلامى لمصر زاد الترابط والتواصل فقد أصبحت مصر ولاية من ولايات الدولة الإسلامية تتأثر بأحداثها وتؤثر فيها، واستقر أبناء القبائل العربية - الذين كانوا يشكلون جيش الفتح - فى مصر، ثم أخذت جموع أخرى من أبناء القبائل تلحق بهم، وتستقر هى الأخرى مخالطة للمصريين ومتزاوجة معهم، وعند منتصف القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى، وقد أنتج هذا التزاوج شعب مصر الإسلامى العربى.

وكان موسم الحج السنوى مناسبة دينية مهمة عملت أيضاً على استمرار الترابط والتواصل بين مصر وبلاد الحجاز.

صور العطاء للحرمين الشريفين وقد تمثل ذلك فى الأوقاف التى أخذ المصريون يخصصونها للحرمين وأهلها.

وعند منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) شهدت مصر قيام الدويلات المستقلة؛ تلك الدويلات التى خضع حكامها من حيث الشكل للخليفة العباسى، بينما استقلوا بأمور مصر وشؤونها وجيشها وأموالها، كما اهتم هؤلاء الحكام بمكانة مصر السياسية وسيادتها واستقلالها بالدرجة التى أدخلتهم فى صراعات وحروب مع الخلافة العباسية نفسها.

ولقد اهتم حكام هذه الدويلات بموسم الحج: تنظيمه، وحمايته، أرادوا بذلك أن يكسبوا حب المصريين وتأييدهم وحب المسلمين عامة وتأييدهم، وسعوا إلى مد نفوذهم على بلاد الحجاز إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ولهذا أصبح موسم الحج يحظى برعاية كبيرة ويرافقه عدد من الجنود لتأمينه وحراسته، وأصبح قائد الموسم أو أميره يحرص على الدعوة لحاكم مصر على منابر مكة والمدينة أثناء الموسم، وقد أمر أحمد بن طولون - والى مصر - جيشه الذى أرسله بصحبة الموسم أن يدخل مكة والمدينة بالسلاح والأعلام والطبول إظهاراً للقوة والنفوذ - ونرى أن هذا ربما يكون بداية ظهور ما عرف بعد ذلك بالمحمل - ومن جهة أخرى كان ابن طولون يرسل الهدايا والعطايا لأهل الحرمين الشريفين.

وفى العصر الفاطمى بلغ استقلال مصر ذروته فلم تعد مصر مجرد ولاية تابعة للخلافة، بل أصبحت مقراً لخلافة تناطحت وتنافس الخلافة العباسية فى بغداد. وكانت بلاد الحجاز - وكذا موسم الحج - ميداناً من ميادين الصراع بين الخلافتين.

لقد اهتم الفاطميون بموسم الحج المصرى، ومنذ شهر رجب من كل عام كان الخليفة يصدر مرسوماً يدعو فيه المصريين للاستعداد للموسم، كما يأمر بإعداد الجند الذين سيرافقون قوافل الحج، والخيل، والجمال، والمؤن، وكان يكرر الإعلان فى كل أنحاء مصر فى الشهور التالية حثاً للناس على الاستعداد للموسم.

واهتم الفاطميون بكسوة الكعبة، وكان إرسالها ووضعها على الكعبة له مفهومه السياسى فى ظل صراعه مع الخلافة العباسية حتى إنه فى عام ٤٣٩هـ ونتيجة لسوء الأحوال فى بلاد الحجاز أمر الخليفة الفاطمى بعدم خروج الموسم المصرى لكنه فى الوقت نفسه أمر بإرسال كسوة الكعبة كالمعتاد.

وإذا خرج والى مصر فى إحدى السنوات على رأس الموسم؛ فإن ذلك يؤدى إلى زيادة أعداد الحجاج لأنهم سوف يتمتعون بقدر أكبر من الحماية والأمن، وفى سنة ٦٥هـ خرج عبد الرحمن بن جحدم - والى مصر من قبل عبد الله بن الزبير الثائر فى مكة ضد الخلافة الأموية - على رأس الموسم وخرج معه كثير من أبناء القبائل.

وفى سنة ٧١هـ وبعد أن نجح الأمويون فى انتزاع مصر وإخضاعها لسيادتهم وكان واليها عبد العزيز بن مروان من قبل أخيه الخليفة عبد الملك، ولما كانت مكة لاتزال تحت سيطرة عبد الله بن الزبير، فقد أمر عبد العزيز بعدم خروج موسم الحج المصرى فى هذا العام لعله خشى أن يتعرض الحجاج المصريون للعدوان، أو لعله خشى أن يخرج المؤيدون لابن الزبير من مصر وينضمون إليه فى مكة، ولكى يعوض المصريين عن الموسم فقد احتفل بيوم عرفات وجلس بالناس فى المسجد بعد العصر، وكان أول من فعل ذلك بمصر «أول من عرف بمصر»، ولعل هذا يوضح لنا المكانة التى أصبح موسم الحج يحتلها فى مصر، تلك المكانة التى ستزداد بازدياد انتشار الإسلام بين المصريين.

ونود أن نشير إلى عنصر مهم من الروابط التى ربطت مصر ببلاد الحجاز منذ الفتح الإسلامى ونعنى به هنا الإمدادات التى كانت مصر تقدمها إلى بلاد الحجاز من الغلال والحبوب والأغذية أو ما عرف باسم «الميرة».

ومعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بحفر خليج يربط بين النيل والبحر الأحمر لتنتقل عبره «الميرة» إلى بلاد الحجاز «خليج أمير المؤمنين». وإلى جانب هذا كانت القوافل البرية أيضاً تحمل الميرة إلى بلاد الحجاز، وعند بداية الدولة الأموية كان فى مصر فئة من أبناء القبائل العربية فيها يعرفون بـ «حملان القمح» إلى الحجاز «وكان لهم رواتبهم - عطاؤهم - فى الديوان». ولا شك أن نقل الميرة إذا كان يتم طوال العام فهو أكثر فى موسم الحج؛ لأن «حملان القمح» هؤلاء كانوا هم أيضاً الذين ينقلون الحجاج على جمالهم.

والجهشيارى يشير إلى أن الخليفة هارون الرشيد أمر بإرسال كميات من القمح من مصر إلى أهل الحرمين، ولعل ذلك ما كان يدفع الخلفاء لضم بلاد الحجاز إلى ولاية مصر لتتحمل مصر ميرة بلاد الحجاز والتى ظلت تتحملها حتى وهى ولاية عثمانية. ثم عرفت مصر صورة أخرى من

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع لى لحافى والمحمل حتى أرى شكل المحمل

وزاد من احتفالات الموسم خروج بعض السلاطين على رأس الموسم، وأحياناً يكون الخليفة مصاحباً لهم، كذلك خروج زوجات السلاطين وأهل بيته، والأمراء، ففي مثل هذه المواسم تزداد أعداد الحجاج، وتكثر القوافل، وكذلك يكثر الجند، والموظفون، والمواد الغذائية ويعم الرخاء الحجاج كما يعم أهل الحرمين الشريفين.

ومن مظاهر الموسم المميزة فى العصر المملوكى ما عرف بالحجة الرجبية، حتى إن الظاهر بيبرس أمر بخروج المحمل فى شهر رجب وسمح للناس بالتوجه إلى بلاد الحجاز، ويذكر ابن إياس أن بيبرس هو أول من فعل ذلك.

مواعيد موسم الحج المصرى

لدينا إشارة ترجع إلى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى تشير إلى عودة الموسم المصرى من بلاد الحجاز فى الخامس والعشرين من شهر المحرم، وإذا اعتبرنا أن الحجاج غادروا مكة فى النصف الثانى من ذى الحجة وبعد الانتهاء من مناسك الحج فمعنى هذا أن رحلة العودة استغرقت مايقرب من أربعين يوماً، وإذا كانت رحلة الذهاب تستغرق مثل هذه الفترة فهذا يعنى أن رحلة الموسم ذهاباً وعودة كانت تستغرق مايقرب من ثلاثة أشهر.

وابن ميسر - فى العصر الفاطمى - يذكر أن قافلة الحج المصرى خرجت من مصر منتصف شهر ذى القعدة، أما ناصر خسرو الذى كان فى طريقه للحج - فى العصر نفسه - يذكر أن الخليفة كان يصدر مرسوماً فى شهر رجب يدعو الراغبين فى الحج إلى الاستعداد «يامعشر المسلمين حل موسم الحج وسيجهز ركب السلطان (الخليفة) كالمعتاد وسيكون معه الجنود والخيول والجمال والزاد». وفى الشهور التالية يتكرر الإعلان والنداء، وعند أوائل ذى القعدة يبدأ الحجاج فى التجمع فى بركة الحاج ثم تبدأ رحلة الموسم إلى بلاد الحجاز.

وفى العصر المملوكى نجد أن مواكب الحج كانت تخرج فى الغالب فى النصف الثانى من شهر شوال، ولعل هذا التبكير مرجعه لتزايد أعداد الحجاج المصريين من جهة والحجاج الوافدين من جهة أخرى، حتى إن الموسم المصرى أصبح يتكون من ركبين رئيسيين أطلق على أحدهما الركب الأول وعلى الآخر ركب المحمل، وفى الغالب

كذلك عمل الخلفاء الفاطميون على توثيق علاقاتهم بالأشراف حكام مكة والمدينة فأرسلوا إليهم الأموال ومنحهم الرواتب والهدايا، وفى كل عام كانت وفود الحجاج المصريين تخرج متجهة نحو مكة والمدينة، وفى الوقت نفسه يكون هناك وفد من أشراف بلاد الحجاز قادم إلى مصر للحصول على الرواتب والهدايا والعطايا، وكثيراً ما استغلوا الصراع بين الفاطميين والعباسيين للحصول على الكثير من العطايا من كلا الخلافتين.

أما صلاح الدين الأيوبي فقد قدم تسهيلات كثيرة للحجاج المصريين والمغاربة مثل تخفيض الضرائب التى كان الحجاج يدفعونها فى الموانئ المصرية، كما أوصى حكام مكة والمدينة بتخفيض الضرائب والمكوس عليهم وعوض حكام مكة والمدينة عن ذلك بالأموال والغلال، وكان اهتمام صلاح الدين بموسم الحج مواكباً ومرتبطاً بسياسته الرامية إلى الاهتمام بالملاحة فى البحر الأحمر بعد أن هدد الوجود الصليبي فى بلاد الشام طرق التجارة البرية بين مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية، ولا شك أيضاً أن اهتمام صلاح الدين بموسم الحج كان يدعم مركزه الدينى فى معركة جهاده ضد الصليبيين.

أما فى العصر المملوكى فإن موسم الحج المصرى - والذى كان ومنذ الاستعداد له يستغرق نصف العام تقريباً - قد أخذ مظهراً دينياً واجتماعياً كبيراً.

إن مصر فى هذا العصر وقد وقفت فى وجه أكبر خطرين هددوا العالم الإسلامى والمسلمين - الخطر المغولى والخطر الصليبي - وبعد أن أحييت الخلافة العباسية واحتضنتها فى القاهرة أصبحت أكبر قوة إسلامية، وأصبحت قبلة المسلمين فى كل مكان كما أصبحت سيادتها على بلاد الحجاز مطلقة، وفى هذا الإطار احتل موسم الحج وطقوسه مكانة متميزة فى المجتمع المصرى نستطيع أن نقول إنها فاقت ما قبلها وما بعدها.

وفى هذا العصر أصبح الإعداد للموسم - من حيث توفير الجمال، الخيام، الملابس، المواد الغذائية من عوامل النشاط الاقتصادى، خاصة أن مصر - وعلاوة على الحجاج المصريين - كانت تستقبل آلافاً من الحجاج القادمين من بلاد المغرب العربى، وإفريقيا، كما كان الموسم باحتفالاته التى تواكب خروجه وعودته - خاصة احتفالات المحمل - من عوامل نشاط الحياة الاجتماعية، وغنى المصريين:

كان ركب الحمل يتحرك من بركة الحاج فى اليوم التالى لتحرك الركب الأول، وعندما تأخر خروج ركب الحمل إلى العشرين من شوال كان ذلك أمراً لم يحدث من قبل، وعندما تأخر فى أحد الأعوام إلى الخامس والعشرين من شوال فقد اعتبر ذلك من الأمور النادرة.

أمير الحج

يذكر المواردى أن الإمارة على الحج نوعان أحدهما يكون على تسيير الحجيج والثانى إقامة الحج، وحدد لكل منهما واجباته، ويبدو أنه منذ قيام الولايات المستقلة فى مصر فقد أصبح هناك قائد عسكري أو مسئول يعينه وإلى مصر ويكون مسئولاً عن حماية الحجاج فى الذهاب والعودة، وأيضاً - وهذا هو المهم - أن يعمل على إظهار مكانة وإلى مصر ويدعو له.

وفى صبح الأعشى أورد القلقشندي العهد الذى كان الخليفة الفاطمى يصدره لتكليف أمير الموسم وتعيينه، ومنه يتضح أن الأمير كان مكلفاً بالاهتمام بالحجاج فى سيرهم وفى إقامتهم، وعليه أن يساوى بينهم فى الرعاية والحماية، ومسئولاً عن سلامتهم وسلامة أموالهم، وعليه أن ينظمهم فى المناسك، وعليه قبل كل شئ أن يبلغ الخليفة بما يحدث فى الموسم، وبالطبع كان عليه أن يدعو للخليفة على منابر مكة والمدينة.

وفى العهد المملوكى أصبح للموسم أميران، أحدهما يعرف بأمير الركب الأول وكان كما سبق أن أشرنا يقود الركب الأول من الحجاج، والآخر يعرف بأمير الحمل لأنه كان يقود ركب الحمل. وكان اختيار الأميرين يتم منذ شهر ربيع الأول فى الغالب. وكان السلطان يمنح كلا منهما مبلغاً كبيراً من المال يستعين به فى إعداد موكبه. ولم يكن الأميران من رتبة واحدة، بل يلاحظ أن أمير الحمل غالباً أكبر فى الرتبة من أمير الركب الأول، لعل ذلك لأن ركب الحمل كان يضم الكسوة، والصرة (الأموال المرسلة للحرمين)، وفى بعض السنوات ونتيجة لزيادة أعداد الحجاج فقد شمل الموسم ثلاثة ركبان.

وكان أمير الحج فى العصر المملوكى - وعلاوة على مسئوليته تجاه الحجاج من حيث رعايتهم وحمايتهم - مكلفاً بمراقبة أحوال بلاد الحجاز ومواجهة أى اعتداء على سيادة الممالك ونفوذهم سواء من قبل حكام مكة والمدينة من الأشراف أنفسهم أو من قبل أمراء حج الولايات الأخرى، وفى بعض السنوات قام أمير الحج المصرى بعزل أمير مكة وتعيين آخر بدلا منه، وكان هذا بالطبع يتم بأمر السلطان

وكان أمير الحج فى العصر المملوكى - وعلاوة على مسئوليته تجاه الحجاج من حيث رعايتهم وحمايتهم - مكلفاً بمراقبة أحوال بلاد الحجاز ومواجهة أى اعتداء على سيادة الممالك ونفوذهم سواء من قبل حكام مكة والمدينة من الأشراف أنفسهم أو من قبل أمراء حج الولايات الأخرى، وفى بعض السنوات قام أمير الحج المصرى بعزل أمير مكة وتعيين آخر بدلا منه، وكان هذا بالطبع يتم بأمر السلطان

الكسوة

بدخول مصر تحت راية الخلافة الإسلامية ومع شهرتها بإنتاج المنسوجات فإن بعض الخلفاء اعتمدوا عليها فى صناعة كسوة الكعبة الشريفة، هذا عمر بن الخطاب يكسو الكعبة بالقباطى المصرى، وكذا فعل الخليفة عثمان من بعده، ويذكر الفاكهى فى «أخبار مكة» أنه رأى أكثر من كسوة عملت فى مصر للخليفة المهدى العباسى ولابنه هارون الرشيد، ثم للمأمون ابن الرشيد.

إلا أن ما يثير تساؤلنا هو عدم وجود إشارات إلى خروج الكسوة من مصر في العهدين الطولوني والإخشيدي، رغم أن حكامهما كانوا حريصين على إظهار نفوذهما في بلاد الحجاز، وإذا كان الخلفاء العباسيون عملوا الكسوة في مصر فكيف توقف ذلك في عهد هؤلاء الحكام، ونحن نستبعد توقف عمل الكسوة في مصر في هذين العهدين، ولعلها كانت تعمل أيضاً باسم الخلفاء تقريباً وزلفى، وتوجد إشارة إلى أن كافور الإخشيدي عمل «شمسة» باسم سيده أنوجور الإخشيدي لتوضع على الكعبة وهى وإن كانت تختلف عن الكسوة إلا أنها تدل على استمرار حكام مصر في إرسال شيء ما للكعبة، ولعل هؤلاء الحكام ظلوا يعملون الكسوة في مصر باسم الخلفاء ثم عملوا الشمسة باسمهم هم.

والمقريزى يذكر أن أول من عمل الشمسة للكعبة هو الخليفة المتوكل العباسى ٢٣٢/ ٢٤٧ هـ وكانت مزينة بسلسلة من الذهب والياقوت والجواهر وكانت تعلق كل عام في وجه الكعبة لمدة يومين وترفع قبل يوم التروية، ونظراً لما كانت تشتمل عليه من ذهب وجواهر فقد كانت تسلم لحجبة الكعبة لحراستها ثم إعادتها مرة ثانية إلى بغداد.

ويبدو أن الشمسة التى عملها كافور الإخشيدي كانت تقليداً لتلك الشمسة، فلما دخل الفاطميون مصر ٢٥٨ هـ استولى جوهر الصقلى عليها ووهبها لسيده الخليفة المعز لدين الله، ولكن المعز أبى إلا أن تكون له شمسته التى تتلاءم ومكانته وتبز شمسة العباسيين والإخشيديين، ويصفها ابن ميسر قائلاً «... فى الشمسة الكبيرة ثلاثين ألف مثقال ذهباً وعشرين ألف درهم مخروق وثلاثة آلاف وستمئة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه...»، وكانت شمسة الفاطميين تلك تعرض للمصريين قبل إرسالها إلى الكعبة، وكانت تعاد بعد انقضاء موسم الحج إلى مصر ثم يتم إرسالها فى العام القادم، ولم يمنع إرسال الشمسة للخلفاء الفاطميين من إرسال الكسوة كل عام، لقد كان التسابق بينهم وبين العباسيين على تعظيم الكعبة والاهتمام بالحرمين الشريفين وحكامهما وأهلها مظهراً من مظاهر إثبات أحقية كل منهما فى الخلافة. وابن جبير الذى أشاد كثيراً بأعمال صلاح الدين الأيوبي لخدمة الحجاج لانجده يشير إلى كسوة مصرية أيوبية بل نراه يفيض فى وصف كسوة العباسيين.

أما سلاطين المماليك فى مصر فقد اهتموا بكسوة الكعبة اهتماماً كبيراً فعينوا لها ناظرًا يهتم بالإشراف على

عملها وإعدادها وصناعتها، كما احتفلوا بها احتفالاً كبيراً ضمن احتفالاتهم بالمحمل. وإعلاناً لسيادتهم على بلاد الحجاز عارضوا أن يرسل أحد غيرهم - من حكام البلاد الأخرى - كسوة للكعبة.

طرق الحج ومسالكه من مصر إلى بلاد الحجاز

كان الحجاج المتجهون من مصر إلى بلاد الحجاز يسلكون أحد طريقين رئيسيين هما: الطريق البرى، الطريق البحرى.

كان الطريق البرى يستأثر بالعدد الأكبر من الحجاج المتوجهين من مصر ذلك لأنه ومنذ البداية كان الطريق الذى تسلكه القوافل بين مصر وبلاد الحجاز على طول العام وليس موسم الحج فقط، وكان يحظى باهتمام الولاة فى مصر ورعايتهم، كما لا يفوتنا أن كثيراً من الحجاج كانوا يؤدون رحلة الحج سيراً على الأقدام «وَأَذْنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»، وكان الحج سيراً على الأقدام عند البعض دليلاً على قوة الإيمان، كما اتخذته البعض وفاء لنذر ولهذا لم يكن قاصراً على الفقراء، ويذكر أن الخليفة هارون الرشيد حج فى إحدى السنوات ماشياً، بل إن بعض النساء حججن سيراً، ولقد أوقف السلطان المملوكى برقوق أوقافاً على طائفة كانت مهمتها مرافقة مواكب الحج ومعهم الجمال يحملون عليها المشاة ويخففون عليهم عناء السير.

كان الطريق البرى ومنذ الفتح الإسلامى لمصر ينطلق من شمال شرق القسطنطينية عند جبل المقطم حتى إن عمرو بن العاص عندما حضرته الوفاة طلب أن يدفن فى المقطم ناحية طريق الحج حتى يحظى منهم بالدعاء له بالرحمة فى ذهابهم وعودتهم فى الموسم، والمقريزى يذكر أن المنطقة الممتدة بين باب النصر والريدانية (العباسية) قبل إنشاء القاهرة كانت فضاء لا بنيان فيه وكانت قوافل الحج تنزل بها. وبعد إنشاء القاهرة صارت الريدانية هى المحطة الأولى لتجمع الحجاج المصريين، أما المحطة الرئيسية الكبرى فأصبحت فى «بركة الحاج» شمال القاهرة بالقرب من المرج الحالية.

ومن بركة الحاج تخرج مواكب الحجاج متجهة نحو القلزم (السويس) مارة على بعض المحطات التى ينزل بها الحجاج للتزود بالمياه، أما السويس فكانت من المحطات المهمة حيث عندها - وقبل الانطلاق فى شبه جزيرة سيناء - كان أمير الحج ينظم موكبه ويوزع الحراسة، وكان هناك

وكان حجاج بلاد المغرب العربى والأندلس يفضلون الطريق البحرى ويفضلون ركوب النيل والتوقف بقرى الصعيد ومدنه والالتقاء بعلمائه خاصة فى مدينة قوص التى كانت ومنذ العصر الفاطمى تشكل مركزاً ثقافياً مهماً، ولذلك ومع تتابع مواسم الحج استقر بعض حجاج المغرب العربى فى قرى الصعيد ومدنه.

وعبر كلا الطريقين - البرى والبحرى - لم تكن رحلة الحج سهلة ميسورة أمانة، بل كثيراً ماتعرض الحجاج للأخطار والمتاعب سواء ماكان منها بفعل الطبيعة كحرارة الجو فى المواسم الصيفية، وكذا قلة المياه فى الطريق وفى مكة، أو السيول التى كانت تحدث فى بعض السنوات فى مكة أو المدينة، أما ماكان من هذه المتاعب من فعل البشر فتمثل بشكل أساسى فى اعتداءات قطاع الطرق واللصوص الذين كانوا يسلبون الحجاج أموالهم وأمتعتهم بل قد يقتلون رجالهم ونساءهم، وكانت هذه المتاعب تلاحق الحجاج فى مصر وفى بلاد الحجاز على السواء.

ومن المؤسف أن قطاع الطرق كانوا دائماً من أبناء القبائل العربية، وكان حجاج الطريق البحرى يتعرضون هم أيضاً لمتاعب تمثلت فى المكوس التى فرضت عليهم فى الموانئ المصرية والحجازية، كما أنهم عانوا كثيراً من أصحاب الجمال الذين كانوا ينقلونهم من مدن الصعيد إلى الموانئ، وكذلك عانوا من أصحاب المراكب الذين لم يراعوا اتساع المراكب وقدرتها بل كان همهم هم وأصحاب الجمال كذلك جمع الأموال، وابن جبير يشير إلى أن الحجاج كانوا يدفعون مكوساً لحكام مدن الصعيد التى يمرّون بها.

ولقد عمل حكام مصر على توفير الحماية للحجاج، وكذا عملوا على تمهيد الطرق، وحفر آبار ماء.

لقد كان موسم الحج فى مصر الإسلامية يستغرق مايقرب من نصف العام، وبهذا كان يشكل ظاهرة اجتماعية مهمة؛ فهو مناسبة دينية تملأ قلوب المصريين بالسعادة، ومناسبة اجتماعية تشهد الاحتفالات والبهجة عند خروج الحجاج وعند عودتهم، أما دوران المحمل فى القاهرة فقد كان أيضاً ظاهرة اجتماعية فريدة وثرية بالفنون الشعبية التى ارتبطت بها، وكان الموسم مناسبة ثقافية أيضاً؛ حيث يلتقى الحجاج العلماء من كل البلاد - الذين اتخذوا من مصر معبراً لهم إلى بلاد الحجاز، خاصة علماء المغرب العربى والأندلس - بعلماء مصر وشيوخها.

بعض الحجاج الذين يفضلون أن يكملوا الرحلة عن طريق البحر. وفى شبه جزيرة سيناء كان ركب الحجاج يتخذ من الأودية والمسالك طريقاً له ماراً ببعض القرى الصغيرة، وكانت «نخل» من المحطات المهمة؛ لأن بها آباراً للمياه العذبة، وقد اهتم بها سلاطين المماليك، ويمتد الطريق البرى من نخل مشرقاً صوب النقب قاطعاً وادى العريش حتى يصل إلى العقبة - عقبة إيلات - وكانت أيضاً من المحطات المهمة ليس لحجاج مصر فقط بل أيضاً لحجاج الشام. ولقد ظل الطريق البرى طوال القرون الخمسة الأولى للهجرة هو الطريق الرئيسى لموسم الحج المصرى، لكن قدوم الخطر الصليبي إلى بلاد الشام وفلسطين ووصول هذا إلى خليج العقبة شكل تهديداً لقوافل موسم الحج وكذا قوافل الانتقال والتجارة بين مصر وبلاد الحجاز؛ وكذا بينها وبلاد الشام وهذا مادفع للاتجاه نحو الطريق البحرى عبر البحر الأحمر.

الطريق البحرى

وهو طريق البحر الأحمر؛ فعلى الشواطئ المصرية وكذا على الشواطئ الحجازية تقع مجموعة من الموانئ التى شكلت محطات ومراكز لتجمع حجاج الموسم المصرى فى الذهاب والإياب، لكن الوصول إلى موانئ البحر الأحمر على الساحل المصرى كان يتطلب من الحجاج رحلة برية أو نيلية من الفسطاط والقاهرة إلى بعض مدن الصعيد ومنها إلى الموانئ.

يبدو أن الحجاج الذين سلكوا الطريق البحرى كانوا يخرجون من الفسطاط والقاهرة مبكراً عن حجاج الطريق البرى، لأن الوصول إلى موانئ البحر الأحمر عبر معابر الصحراء الشرقية كان يستغرق فترة طويلة وابن جبير - فى القرن السادس الهجرى - يذكر أن الرحلة من القاهرة إلى قوص فى النيل استغرقت مايقرب من ثمانية عشر يوماً ثم من قوص إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر مثل هذه المدة تقريباً؛ فهذا يعنى أن حجاج الطريق البحرى كانوا يقضون مايقرب من شهر ونصف الشهر داخل مصر قبل أن يركبوا المراكب إلى بلاد الحجاز.

ومن موانئ البحر الأحمر «القصيرة»، وكانت ترتبط بقوص وقنا بطرق برية، أما ميناء عيذاب ورغم وقوعه فى أقصى الجنوب ورغم طول فترة الوصول إليه عبر الأودية الصحراوية فقد فضله بعض الحجاج المصريين لأن الرحلة البحرية منه إلى سواحل الحجاز تكون قصيرة.